معالم مدينة عدن بين الأصـــالة والحـداثة

د. محمد حمود أحمد الكبسي
أستاذ الهندسة المعمارية المساعد - كلية الهندسة - جامعة عدن
م. مارسيل محمود يعقوب خان
مهندس معيد - قسم الهندسة المعمارية - كلية الهندسة - جامعة عدن

ملخص

تعد مدينة عدن الخلابة من أجمل المدن اليمنية وأهمها على الإطلاق ذلك لما تمتلكه من مقومات الأصالة والتراث المعماري من ناحية، ومن ناحية أخرى العمران الحديث وأصول التخطيط الحضري والمدني، كما إن مدينة عدن تنعم بموقعها الجغرافي المهم لخطوط الملاحة الدولية ونجدها تتمتع بطبيعة جغرافية سياحية رائعة بإطلالها على خليج عدن من خلال شواطئها الجميلة، كما تزخر مدينة عدن بالكثير من المعالم المعمارية والتاريخية التي تؤكد مدى عراقة هذه المدينة وتراثها المعماري والثقافي، ولكننا نجد أن هذه الثروة المعمارية والمعالم التاريخية التي ترمز إلى أصالة المدينة وتاريخها عرضة للانقراض والتلاشي بسبب الإهمال وعدم الاهتمام وغير المبالاة بهذه المعالم. وهذا بدوره يؤدي إلى طمس الهوية التاريخية لها... كما إن عدم الحفاظ عليها من خلال إزالتها (هدمها) واستغلال مساحتها لإنشاء مبانٍ غريبة لا تمت بصلة إلى تاريخ المدينة وعراقتها يؤدي إلى نضوب هذه المعالم وذوبان الطابع المعماري والتراثي للمدينة.

وهناك الكثير من المعالم والمباني المعمارية التاريخية أصبحت اليوم أطلالاً أو أقيمت بدلاً منها مباني غريبة الطراز خارجة عن نسق النسيج المعماري والعمراني للمدينة، وهناك أمثلة كثيرة جداً لما يحدث من عبث بهذا التراث المعماري وخير مثال لذلك مسجد أبان في مديرية كريتر وهو المسجد ذو التاريخ العريق، نجده اليوم قد فقد هويته التاريخية وتميزه المعماري لكونه أصبح من المساجد المتكررة النمط في مناطق مختلفة من المدينة.

ومن خلال هذه الورقة البحثية نسلط الضوء على العديد من المباني المعمارية التي بحاجة إلى الاهتمام من جهات الاختصاص والحفاظ عليها والاهتمام ببقاء نمطها المعماري الذي بنيت عليه سابقاً. ونجد أن المقاييس والمعايير الحقيقية للحضارات هي العمارة والعمران، فلا تقاس حضارة إلا بعمارتها وعمرانها والأمثلة على ذلك كثيرة منذ أقدم الأزمنة وما قبل التاريخ، وقد تم الاعتماد في جمع مادة البحث على النزول والمسح الميداني وتحليل الدراسات الميدانية لبعض المعالم في مدينة عدن.

وفي ختام بحثنا هذا نوصي بالعديد من التوصيات التي تؤكد على ضرورة الاهتمام غير المحدود بالمباني والمعالم المعمارية التاريخية لمدينة عدن وإعادة تأهيلها والحفاظ على هويتها وطرزها المعمارية.

كلمات مفتاحيه:
الأصالة - الحداثة - النسيج المعماري - التراث المعماري - الهوية المعمارية.

1- المقدمة:

إن البحث في موضوع المعالم التاريخية وعملية الحفاظ عليها وحمايتها وصيانتها- سواء أكان في وطننا العربي والإسلامي بشكل عام أم في بلادنا بشكل خاص - عملية شاقة وطويلة ومتشعبة نظراً لكثرة تلك المعالم وتواجدها في مواقع مختلفة، الأمر الذي يحتاج إلى فريق عمل متخصص وكذلك يحتاج إلى وقت طويل.

ونجد أن العمل في مجال الحفاظ على المباني التاريخية وتوثيقها وصيانتها وربط أصالتها بالحداثة وبالعمارة العصرية والاستنباط الإيجابي من مقومات هذه المعالم والمباني التاريخية في عالمنا المعماري الحديث.

ونلاحظ أن الحفاظ على المباني التاريخية في الوطن العربي يختلف من دولة إلى أخرى وفقاً لقدراتها المالية والفنية والثقافية ونظرتها إلى التراث بجوانبه كافة.

ونجد أن عملية الحفاظ على التراث المعماري والمعالم المعمارية تتجه إلى اتجاهين مختلفين، الاتجاه الأول هو الاتجاه الإيجابي الذي يرى أنه من الضروري إعطاء عملية الحفاظ على المباني والمعالم التاريخية أهمية كبيرة وذلك تعبيراً عن الاحترام للماضي والحرص على ربط الماضي بالحاضر والتطلع إلى مستقبل أفضل ومتطور يزخر بأجمل عناصر العمارة الحديثة وتفاصيلها والعمارة التراثية والتقليدية. أما الاتجاه الثاني هو الاتجاه السلبي الذي يرى فيه تخلف الماضي وضرورة التخلص منه وهذا كان سبباً رئيسياً في تدمير كثير من معالمنا التاريخية سواء كان في بلادنا أو البلاد العربية والإسلامية قاطبةً.

وهنا لابد من الإشارة والتنبيه والتحذير وإطلاق صرخة صاخبة للحفاظ على هذا التراث المعماري وصيانته والحفاظ على المعالم المعمارية والتاريخية، والتنبيه إلى ضرورة التوعية الشاملة من أجل حماية هذه الصروح التاريخية من شبح الانقراض والتلاشي الذي يؤدي إلى طمس الهوية المعمارية والتاريخ والحضارة والأصالة على مستوى بلادنا والبلاد العربية والإسلامية.

1. هدف البحث:

يهدف البحث التعريف بأهمية المعالم المعمارية والتاريخية في مدينة عدن وأن هذه المعالم مبعث فخر واعتزاز للأمة، ودليلاً على عراقتها وأصالتها وأنها المعبرة عن الهوية الوطنية والثقافية وهمزة وصل بين الماضي والحاضر. ولقد حفل الماضي بالكثير من المباني التاريخية والقصور والمساجد والمعالم ليس في مدينة عدن وحسب، ولكن في مختلف مدننا اليمنية. وهنا نجد في ذلك دعوة صريحة لحماية تراثنا المعماري والعمراني وحماية ما خلفه الأجداد من تراث سواء كان معمارياً أو فنياً أو أثرياً وضرورة الحفاظ عليه من الهدم والاندثار والخراب.

يهدف البحث إلى تأسيس مؤسسات تختص وتعتني بهذه المعالم وتقوم بصيانتها وترميمها بشكل مستمر وكذلك رصد الميزانيات المناسبة للإنفاق على أعمال الترميم والصيانة والتأهيل.

كما تهدف هذه الورقة البحثية إلى إصدار التشريعات من الجهات الرسمية التي تضمن حماية تلك المعالم وبقائها والسعي لعقد الاتفاقيات الدولية للمساعدة في حماية المعالم التاريخية والتراثية وصيانتها.

1.1 منهجية البحث:

اعتمد البحث لتحقيق أهدافه على دراسة نظرية وتحليلية وجمع المعلومات من خلال النزول الميداني ودراسة الخصائص المعمارية للمعالم التاريخية والمعمارية في مدينة عدن وكذلك التوثيق التصويري من خلال الصور المعروضة في الورقة البحثية، وأيضاً المنهجية الوصفية؛ أي وصف هذه المعالم من خلال الدراسة التحليلية. وكان للنزول الميداني الجانب الأوفر في توفير المعلومات ورسم المخططات المعمارية ونقل صورة حية لواقع المعالم المعمارية والتاريخية في مدينتنا وأهمية الحفاظ عليها.

2.1 العرب والتراث:

إن العرب والمسلمين كانوا في طليعة الشعوب التي تهتم بالتراث الحضاري وتحافظ عليه وصولاً إلى محط قضايا الأمة الثقافية والقومية والاقتصادية، وأن الفوائد التي تجنيها من حماية الآثار والاهتمام بها يتجلى في كونها تراثاً أصيلاً يتصل بشخصية الأمة ويعطيها الطابع المميز ويعبر عما تتمتع به من حيوية وقدرة على حل المشاكل الخاصة بالحياة كما يحدد مستوى الأمة في الذوق والحس الإبداعي ودرجة تقدمها في العلوم والفنون وقد دفع ذلك الأمم إلى الاهتمام بالتراث وحمايته.[1]

2. أهمية عدن التاريخية:

تعود أهمية عدن الإستراتيجية ليس إلى موقعها الإستراتيجي فحسب ولكن من تركيبها الجغرافي أيضاً، فعدن تقع في الجنوب الغربي من ساحل البحر العربي وهي من الناحية الجيولوجية تعد الحدود الجنوبية الغربية لليمن، وتقع مدينة كريتر في شبة جزيرة بركانية بالقرب من الطريق القديم المباشر من الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط واليونان ومصر وشرق أفريقيا إلى الهند.

فعدن قريبة من باب المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وتبعد منه شرقاً بحوالي 160 كم وعليه فهي تشرف على مدخل البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي وتعد أنسب ميناء مقارنةً بموانئ أخرى قريبة. إن هذا الموقع الإستراتيجي المهم جعل عدن محط اهتمام الدول الكبرى عبر التاريخ... وأهمية عدن كما أوردنا سابقاً لم تأتِ من موقعها الإستراتيجي فحسب ولكن من تركيبها الجغرافي أيضاً. فإنه عند اختيار كريتر موضعاً لمدينة عدن قد نظر إلى تحصينها من ناحية البر بالجبال الوعرة التي تحيط بها. إن شبه جزيرة عدن بركان خامد ويسمى الآن بشمسان وقديماً (العرّ) أي الجبل (عرّ عدن) ويبلغ ارتفاعه 553 متراً، وهناك في الجزء الشرقي فتحة في السلسة المواجهة لجبل صيرة وهنا يوجد القسم الرئيسي من المدينة وتصل التجمعات السكانية حتى قرب البحر (الشكل 1و2).[2]

إن اختيار الإنسان الأول الذي استوطن عدن كان لحصانتها الطبيعية واحتمائه بها من الأعداء سواء القادمين من البر أو البحر.

إن تاريخ استيطان الإنسان الأول لعدن غير معروف ولكن لاشك أن لمحة واحدة إلى الأثريات الضخمة للمدينة تدل لماذا اختار العديد من الأجيال بناء منازلهم والعمل في التجارة هناك وتشرحه.

إن ما يعرف الآن بمدينة كريتر في عدن ما هي إلا قلعة طبيعية باهرة تحيط بها الجبال ذات الجوانب المنحدرة تقف حامية تاركة القليل من المداخل الدفاعية السهلة من ناحية البر، ويصل شبه الجزيرة بالبر الرئيسي _ خلف الأسوار_ برزخ ضيق يشكل

عائقاً للغزاة. ويقع أمام المدينة المحصنة ميناء صغير وهو أحد الموانئ القليلة جداً والطبيعية الممتازة في الساحل الجنوبي لبلاد العرب.

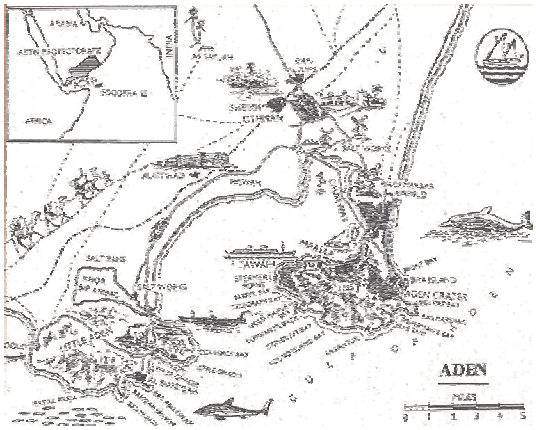

الشكل (1) يوضح الموقع الجغرافي لمدينة عدن (كريتر)[3]

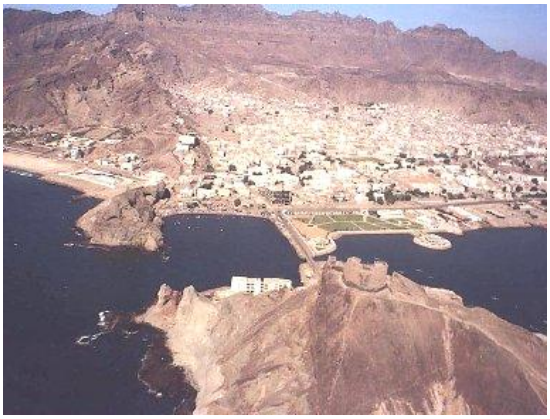

الشكل (2) صورة جوية لمدينة عدن (كريتر)[10]

كما كان للميناء دفاعاته الطبيعية متمثلة بجزيرة صيرة وهي قلعة طبيعية شامخة تحرس المدخل والملاحة من أعمال النهب والسلب التي يقوم بها أولئك القادمون من وراء البحار. كما إن الحماية التي توفرها جبال عدن شديدة الانحدار لسكان المدينة عبر العصور كان شيئاً له أثره في جمع ثرواتهم المكدسة في منازلهم المحصنة بعيداً عن الفقر المسيطر على الريف. وكان حجم الميناء أيضاً من النوع الذي يتناسب مع سفن التجار وذلك حتى بدء باستعمال الحديد والصلب الذي حرر الملاحة من القيد الذي فرضته تكنولوجيا صناعة الأخشاب حتى التاريخ الحديث جداً... أي إن موقع المدينة كان ممتازاً بكل المقاييس.[2]

1.2 مدينة كريتر القديمة (أحياء المدينة):

يصعب تحديد أحياء مدينة كريتر القديمة من خلال حاراتها الحديثة فلا يوجد من معالمها قبل الاحتلال إلا ملامح باهتة غيرها الانجليز. لقد غيرت سلطات الاحتلال البريطاني أغلب أحياء المدينة واستبدلتها بهذه الشوارع المستقيمة الحديثة وخططت لها أسواقاً منفصلة وتخصص كلٍ منها بلون من التجارة والمهن، كحارة البز (القماش "Cloth Bazar")، والطعام ("Dana Bazar")، والحراج (المزاد "Auction Bazar")، والاتحاد ("Union Bazar")، والبهرة (طائفة البهرة الإسماعيلية اشتغل كثير منهم بالتجارة في هذا السوق)، الحدادين، والخياطين، وسوق الكدر (الخبز)، والسوق الطويل حيث يتم هنا تقريباً بيع جميع الاحتياجات اليومية وشراؤها، كما كانت توجد هناك جميع المطاعم والبقالات والباعة العموميون بالتجزئة (الشكل3).[3].

وقسمت المدينة إدارياً إلى أحياء رمز إليها بحروف أبجدية مثل حرف (A) ابتداءً من شارع الميدان إلى حرف (F) في الخساف. ورقمت الشوارع بأرقام متسلسلة ومع ذلك استمر الناس بتسمية أحيائهم كما اعتادوا، ونسبوها إلى الأولياء المجاورين لها كحافة أبان، أو حافة حسين، أو العيدروس أو الشخصيات المرموقة كحارة القاضي أو الشريف، أو حارة لقمان، والى الجنسيات المختلفة كحافة الهنود، وحافة البانيان، وحافة اليهود. وبقية التقسيمات الإدارية للاستعمال الرسمي والاتفاقيات والعقود واستمرت بعض هذه

الأسماء التراثية حتى بعد أن وضعت للشوارع أسماء تاريخية عربية أو إسلامية أو أجنبية من العالم وظل الناس يستعملونها بالرغم من ذلك.[2][3]

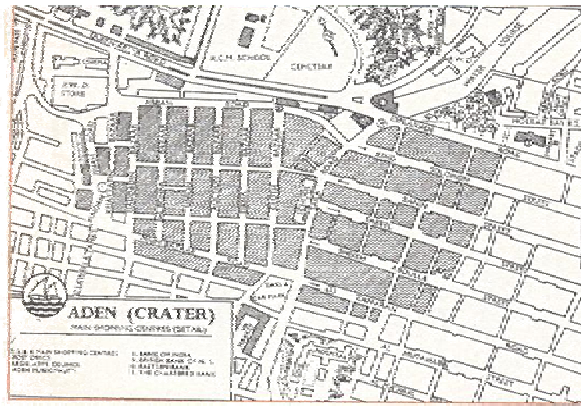

الشكل (3) يوضح حارات مدينة كريتر عدن[3]

ورغم توسع كريتر عدن منذ منتصف القرن الماضي على أسس تخطيط حديث فإنه يمكن تبيين ملامح باهتة عما كان سائداً من قبل ذلك، فقد أكد بامخرمة من أهل عدن بأن "مساكنهم في طرفها مما يلي الساحل وقريب منه" فهي بهذا تقع على شريط صيرة الساحلي مابين القطيع وسائلة الطويلة وتمددت نحو الغرب في اتجاه سفح جبل شمسان، وإذا تخطت هذه السائلة فإنه أقصى حدودها كما أشار المقدسي هو مسجد أبان، وتذكر المصادر التراثية أسماء أحياء مازالت معروفة حتى اليوم مثل: 1. حارة أبان 2. منطقة الخساف تحت اسم جرام الشوك 3. حي الشاذلية وهي حافة حسين الآن نسبة إلى الولي المدفون فيها وهو حسين بن الصديق الأهدل الذي توفي عام (903هـ _ 1497م).

أما بقية الأحياء القديمة من المدينة كما ذكرها بامخرمة وابن الديبع وابن المجاور مثل حافة الحبوش، وحافة المقادشة، وحافة اليهود بالقرب من المهلكة حالياً (مقبرة اليهود القديمة) فكانت كل هذه الحارات تقع في منطقة العيدروس وجوهر والجبل الأحمر وسائلة الطويلة بالإضافة إلى حي القطيع الذي اتخذ اسمه اسم المقبرة المشهورة فيه ويشمل الشريط الجنوبي لسائلة العيدروس مابين باب حقات ومسجد العيدروس ويطلق على الجزء الأقرب منه إلى الساحل (المرسابة) وهي محطة القوافل وفيها الآن مسجد علوي بن محمد بن عيدروس الذي توفي عام (1000هـ _ 1591م).[2]

ونجد أن موضوع العمران في عدن يوضح لنا كيفية تنفيذ البناء إذ لم يتبع أي نمط فني موحد بل جاء خليطًا من الأنماط، فمثلاً تم بناء الكنيسة الكاثوليكية على النمط القوطي بينما بنيت بقية المباني على الفيكتوري والهندي. إلا أن النمط الهندي بطبيعته متنوع. وراعى المهندسون في المباني حرارة الجو والرطوبة واستخدام المواد الأولية المتوفرة كليًا قدر الإمكان واستيراد الباقي حتى الأيدي العاملة، ويجلب النجارون والحدادون والبناءون من بومباي إذ لم يكن هناك عدد كافٍ من العمال في عدن، فمثلاً عمال اليومية كانوا يستوردون من المخا، ومن المخا أيضا كان يأتي الخبازون الماهرون في عمل الخبز والرغيف. وهكذا نمت عدن على حساب التدهور التدريجي للمخا لاسيما بعد إعلان عدن ميناء حر في 1850م وبعد افتتاح قناة السويس 1869م[2].

2.2 أهم معالم مدينة كريتر عدن التاريخية:

إن المتتبع التاريخي العمراني في كريتر-عدن يلاحظ أنه لايوجد معلم تاريخي يعود بكامله وتفاصيله إلى مرحلة ما قبل الاحتلال البريطاني دون أن يطرأ عليه التغيير أو التجديد أو الترميم والصيانة من السلطات البريطانية وإن ظلت بعض المعالم محتفظة بنمط بنائها كما كانت من قبل إذ لم يقم البريطانيون سوى بترميمها مثل: المنارة المثمنة الأضلاع القائمة حاليًا قرب البريد الرئيسي بكريتر، والطريق إلى قمة جبل شمسان الصاعد من الهضبة وهو مكون من درج منظم ومرتب منذ عهد السيطرة العثمانية على عدن، فلم تغير السلطات البريطانية فيهما شيئًا ولكنها رممت المنارة وأزالت الجامع الذي تتبعه المنارة وجعلت بدلاً منه معسكراً للتدريب ما يجعل الناظر إلى المنارة يشك بأنها فنار قديم حيث كان السور الساحلي القديم يمر بمحاذاتها، أما الدرج الصاعد إلى قمة شمسان فقد صانه البريطانيون وأهملته السلطات المحلية منذ الاستقلال وهذا تدهور مستمر للأسف. أما أسوار كريتر وتحصيناتها فقد أعاد البريطانيون بناءها في مواقعها بأشكال وأساليب جديدة.[2]

3.2 المعالم التاريخية الأخرى وهي:

1. أسوار عدن على جبل المنصوري وضمنها قلعة الخضراء وباب عدن (العقبة) (الشكل4) وحصن التعكّر.
2. النفقان (البغدتان) النفق الممتد تحت جبل المنصوري من كريتر إلى خور مكسر أمام مبنى إدارة التربية والتعليم حاليًا والنفق (البغدة) الثانية التي تصل البرزخ بهذه البغدة.
3. سور جبل حقات.
4. فنار معاشيق.
5. صهاريج الطويلة (الشكل5).

بالإضافة إلى بعض معابد الهندوس والفرس.

الشكل (4) يوضح باب عدن (العقبة) قبل الهدم[10]

الشكل (5) يوضح باب عدن (العقبة) أثناء الهدم[10]

الشكل (6) يوضح صهاريج الطويلة

4.2 المباني التاريخية الشهيرة:

وهي مبانٍ بعضها صارت عامة وأخرى منها خاصة وهي كالآتي:

1. قصر سلطان لحج المسمى بقصر البراق أو قصر الشكر ومن ثم المتحف الوطني والهيئة العامة للآثار وحاليًا مركز الدراسات والبحوث (الشكل7).
2. مركز رامبو الثقافي (الشكل8).
3. مقر المقيم البريطاني في الخساف (حاليًا جزء من وزارة العمل).

4. المتحف الحربي (حاليًا) وسابقًا مدرسة السيلة الابتدائية (تأسست داراً للمقيم السياسي عام 1918م ثم صارت مدرسة).
5. مبنى إدارة الضرائب (الشكل9).

وكثير من المباني التاريخية والمنازل القديمة التي تعود إلى نهاية الحرب العالمية الأولى.

الشكل (7) يوضح قصر السلطان

الشكل (8) يوضح مركز رامبو الثقافي[1]

الشكل (9) يوضح مبنى إدارة الضرائب[10]

3. المساجد:

المسجد هو المكان الذي تقام فيه الصلاة مهما كان هذا المكان بسيطًا، ومنذ بداية تأسيس الدولة الإسلامية بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كان أول ما أمر به بناء المسجد وكان المسجد هو نقطة انطلاق أساسية للمدينة المنورة التي كانت عاصمة الدولة الإسلامية في عهد الرسول، حتى انتقال مقر الحكم إلى دمشق وبغداد وغيرهما من العواصم الإسلامية، ومع زيادة رقعة الدولة الإسلامية وامتداد مساحتها الجغرافية أخذ طراز عمارة المساجد في التنوع حسب البيئة التي يتم البناء فيها.[4] [5]

3.1 المعايير التخطيطية للمساجد:

إن اختيار موقع المسجد يشكل جانبًا مهمًا في تخطيط المدن الإسلامية، لذا لم تكن قديمًا هذه المسألة مجرد اختيار عشوائي ولكن كان نظامًا أصيلاً ومدروسًا في تاريخ العمارة استحدث في السنة الأولى من الهجرة ولم يكن معروفًا قبل الإسلام وكان يراعي أن يكون موقع المسجد وسط العمران وفي مساحة تسمح بإقامة الشعائر والفعاليات الدينية المرافقة لها وكان تخطيط المسجد يخضع لأربعة مبادئ ثابتة وهي:

1. جدار القبلة قاعدة للتخطيط وبمثابة المحور الرئيسي.
2. تخط أسس بيت الصلاة صفوفًا متوازية لجدار القبلة بحيث تكون كل الدعامات لبيت الصلاة متوازية لجدار القبلة أو عمودية عليه.
3. ضرورة وجود صحن فسيح يطل عليه بيت الصلاة.
4. الجدار الذي يحيط ببيت الصلاة والصحن المكون للمسجد يجب أن يكون على شكل مربع.

وكان من البديهي بأنه لم تكن هناك قواعد ثابتة تفصيلية فيما يخص المساحات والفراغات والوظائف الفرعية الأخرى وتركت هذه المسائل للظرف والزمان والمكان ومع هذا حافظت العمارة عند بناء المساجد على تحقيق مكان للصلاة يقف فيه المؤمنون بنظام خلف الإمام أو يجلسون قعودًا باتجاه الخطيب... فكان على العمارة تحقيق الفضاء اللازم في الحرم للقيام بالصلاة والاستماع للخطبة وتجعل الحرم عرضيًا وكانت وظيفة القبة تكمن في توزيع الصوت، والنوافذ لإدخال الهواء والضوء الطبيعي.ومنذ البداية

كان الصحن مجالاً للصلاة في الهواء الطلق بعيدًا عن حرارة الحرم في الصيف. وتوجد بعض العناصر المعمارية والوظيفية الأخرى المكملة لتخطيط المسجد وبنائه مثل المنبر حيث قيل إن أول من عمل المنبر هو تميم الداري وعمله للرسول (صلى الله عليه وسلم) وأيضًا كرسي الشمعة الذي كانت توضع عليه الشمعة للإضاءة ليلاً، وفي بعض المساجد يكون المنبر متنقلاً ويحفظ في غرفة صغيرة مغلقة بجوار المحراب وذلك للحفاظ عليه من التلف ولكي يبقى رونقه الأصلي، ثم ظهرت فيما بعد عناصر معمارية جديدة ومهمة كالمئذنة التي كانت تؤدي دورها في دعوة المؤمنين للصلاة حتى أصبحت رمزًا من الرموز المعمارية المهمة للمسجد...وأيضًا المحراب الخاص بالإمام في اتجاه القبلة، ثم ظهرت الأروقة المختلفة وغيرها وذلك بمعنى أنه لم تلبث المساجد الإسلامية حتى أصبح لها نظام خاص لا تكاد تخرج عنه أسوة بمسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة المنورة، وعلى غرار التخطيط الذي رسمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما اشترك في بناء مسجده.[6]

إن معظم المساجد قديمًا كان لها جزء في الوسط يسمى الصحن وهو إما مكشوفًا أو مسقوفًا على أعمدة من جذوع النخيل أو من الأعمدة الحجرية أو الطينية. وتحيط به أربعة أجزاء تسمى أروقة ذات سقوف مستوية محمولة على عقود تقوم على أعمدة حجرية أو طينية وتتميز المساجد قديمًا بالبساطة والتواضع من حيث التخطيط والتصميم والتنفيذ من حيث استخدام مواد البناء المتوفرة في البيئة المحيطة مثل الطين والأحجار والأشجار للجدران والسقوف، كما إن مجاورة البستان والماء لأكثر البيوت والمساجد ساهم إلى حد كبير في التخفيف من الانعكاس الحراري والوهج إضافة إلى ترطيب الهواء المار خلال الخضرة نحو الفتحات إلى الداخل وفي بعض المساجد استخدم الماء الناتج من عملية الوضوء لري البستان المجاور للمسجد وعليه تعدل حرارة الجو المحيط، وكان للعرب الفضل في انتشار الإسلام وقيام الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وبمجيء الإسلام ابتدأ بناء المساجد التي أدت دورًا كبيرًا في البلاد التي فتحها العرب.

وكان اليمنيون من أوائل الشعوب التي آمنت بالدين الإسلامي وشيدت في اليمن مساجد كثيرة لا تحصى، منها ما هو قائم ومنها ما بني مكانه مسجدًا آخر ومنها ما تهدم وانتهى دون إبقاء أي أثر لها.

وترتبط أهمية المساجد بالعقائد الدينية التي يمارسها شعبنا اليمني المسلم فانتشرت المساجد في كل المناطق اليمنية وفي التجمعات السكنية ونتيجة لاختلاف البيئة اليمنية وتنوعها من مناطق جبلية ذات طقس بارد إلى مناطق سهلية وصحراوية ذات طقس حار فقد تنوعت عمارة المساجد في اليمن بشكل كبير من حيث الأشكال المعمارية واستخدام مواد البناء، وعلى الرغم من الحفاظ على بعض أساسيات المسجد كالصحن وبيت الصلاة إلا أننا نجد في المناطق الباردة أنهم قد استغنوا عن الصحن واختصروا مساحته لمصلحة بيت الصلاة وذلك بسبب عامل المناخ البارد حيث أصبح المسجد كله مسقوفًا ومغلقًا، بينما نجد في المناطق الحارة أن بيت الصلاة قد أصبح كالصحن من حيث عمارته، فلم يتم الاكتفاء ببناء صحن مكشوف للصلاة ولا بإضافة صالة مسقوفة وأروقة متعددة بل تم إضافة جناح خاص مدرسة لتعليم القرآن وجناح خاص للنساء ومكتبة. ومع تطور العمارة اليمنية ابتكرت نماذج وأشكال معمارية جديدة عبر السنين للتكيف مع الطقس وجعل المساجد أكثر ملائمة للبيئة المحيطة[6].

أما المساجد في مدينة عدن فمعظمها يحتاج إلى صيانة وترميم يحفظ أهميتها وملامحها التاريخية وطابعها المعماري العريق إلى جانب أهميتها الدينية ومكانتها، كونها أماكن مقدسة للعبادة وتنظيم زياراتها بشكل مناسب ومتحضر وهي:

- المنارة قرب البريد المركزي بكريتر (الشكل10).
- مسجد العسقلاني (الإمام البيحاني) في شارع حسن علي (الشكل11).
- مسجد العيد روس.
- مسجد الشيعة الجعفرية (الإثني عشرية) في طريق العيد روس(الشكل12).
- مسجد أبان (أعيد بناؤه بشكل لا يتوافق مع نمطه العريق) (الشكل 13و14).
- مسجد البهرة في شارع الشيخ عبد الله.
- مسجد الأحناف في شارع الإمام علي في حافة الهنود.
- المساجد المدفون فيها أو بقربها أولياء وصالحين مثل مسجد جوهر (حي جـــوهر بالقرب من العيد روس) مسجد الأهدل في حافة حسين، مسجد حامد في الزعفران، ومسجد أحمد العراقي في القطيع، ومسجد الشيخ عبد الله في شارع الشيخ عبد الله والزعفران.[2]

الشكل (10) المنارة قرب البريد المركزي بكريتر[1]

الشكل (11) مسجد العسقلاني[10]

الشكل (12) مسجد الشيعة الجعفرية[10]

الشكل (13) مسجد أبان (الأصالة)[10]

الشكل (14) مسجد أبان (الحداثة)

ومن خلال هذه الورقة البحثية سوف نسلط الضوء على مبنيين عريقين يظهران لنا مدى الإبداع الفني والمعماري في هذه المباني التاريخية التي تعكس حضارة امة لها باع طويل في مجال الهندسة المعمارية والفن المعماري.

4. قصر السلطان

قـصر الـسلطان عبـد الكـريم فـضل محـسن العبـدلي (قـصر سـلطان لحـج)، قـصر (السلطان)، قـصر (البـراق)، قـصر(الشكر)، قـصر (14 أكتـوبر) هـذه التـسميات ارتبطت بالقصر الكائن في الخليج الأمامي بكريتر عدن، والسلطان مقصود به صاحب القصر وهو السلطان عبد الكريم فضل محسن العبدلي الذي شيده في عام 1918م. أما البراق فهي تسمية أطلقها العامة من الناس، وهي كلمة محرفة من اللغة الإنجليزية (Barracks) وتعني معسكرات تواجد الجنود، وقد بني منها الكثير في المساحة الواقعة قرب ساحل صيرة ميناء عدن، حيث وطأت أقدام المحتلين الإنجليز عند غزوهم للمدينة عام 1839م، وأما تسمية الشكر فيرجعها البعض للإمام أحمد يحيى بن حميد الدين الذي كان وليًا للعهد عند زيارته لعدن ونزوله القصر في إبريل 1946م لغرض الاستشفاء والعلاج.[7]

وانتشرت قصور السلاطين الكبيرة في لحج وحضرموت وشبوة التي شيدت في مطلع القرن العشرين، لم ترتبط بأية أسماء أو صفات عدا أنها منسوبة لمن بناها من السلاطين باستثناء قصر السلطان في لحج فقد عرف بدار(الحجر) وهي لفظة جاءت للتمييز عن باقي دور السلطان. وعودة لتسميات قصر السلطان في عدن فقد اتخذ القصر مسميات عديدة إضافة إلى التسميات المذكورة سابقاً لتعدد الجهات التي استولت عليه عقب الاستقلال الوطني في 30 نوفمبر 1967م، فتنظيم الجبهة القومية الذي استلم الحكم بعد بريطانيا اتخذ جانبًا من القصر مقرًا لقيادته العامة فسمي (قصر 14 أكتوبر) وفي الجانب الآخر كانت مطابع الحكومة التي تصدر منها الصحيفة الرسمية (14 أكتوبر)، وبعد سنوات أي بعد 22 يونيو 1969م صار القصر مدرسة للعلوم الاشتراكية يتلقى فيها أعضاء التنظيم السياسي وكوادره أصول علوم الاشتراكية العلمية. ومنذ العام 1983م تحول هذا الجانب إلى فرعين لمؤسستين واحد للآثار والمتاحف والآخر لمركز الدراسات والبحوث، أما الجانب الآخر الذي كان مطابع للحكومة فقد تحول لمقر منظمة الحزب في محافظة عدن مطلع الثمانينيات ليصبح بعد أحداث 13 يناير 1986م محكمة حوكم فيها رموز التيار المهزوم بعد الأحداث الدامية في عدن 1986م، ثم تحولت المحكمة إلى كلية الحقوق حتى العام 2000م الذي عاد فيه هذا الجانب من القصر لأصحابه ولكن ما زال الجانب الأساسي من القصر مشغولاً بمرفقين حكوميين هما المتحف الوطني للآثار والآخر مركز الدراسات والبحوث.[7] (الشكل15).

الشكل (15) يوضح الواجهة الشمالية للقصر[8]

وفيما يخص المبنى الذي يشغله المتحف فهو يقع في الطابق الأول من القصر المكون من ثلاث قاعات رئيسية وممرات جانبية وعلى يسار المدخل توجد مجموعة من الآثار الحجرية (تعود إلى العصر الحجري والبرونزي) حيث توجد آلات وأدوات حجرية، ويوجد

بالممر الشمالي مجموعة من القطع الحجرية بأنواع مختلفة من الخط اليمني القديم، أما القاعة الشمالية توجد بها آثار تعود إلى العهود السبئية القديمة وهي عبارة عن قطع تشمل تماثيل وقرابين ونقوشاً مكتوبة على ألواح من الحجر مدون عليها بعض أسماء لملوك سبأ. أما القاعة الرئيسية وهي خاصة بآثار دولتي قتبان وأوسان والزخارف والقرابين. والقاعة الجنوبية فهي تخص الآثار الإسلامية، وتشمل قطعًا أثرية وصوراً لمعالم تاريخية. أما الممر الشرقي والممر الجنوبي توجد به قطع وتماثيل تخص زمن ملوك سبأ وذي ريدان (الشكل16).

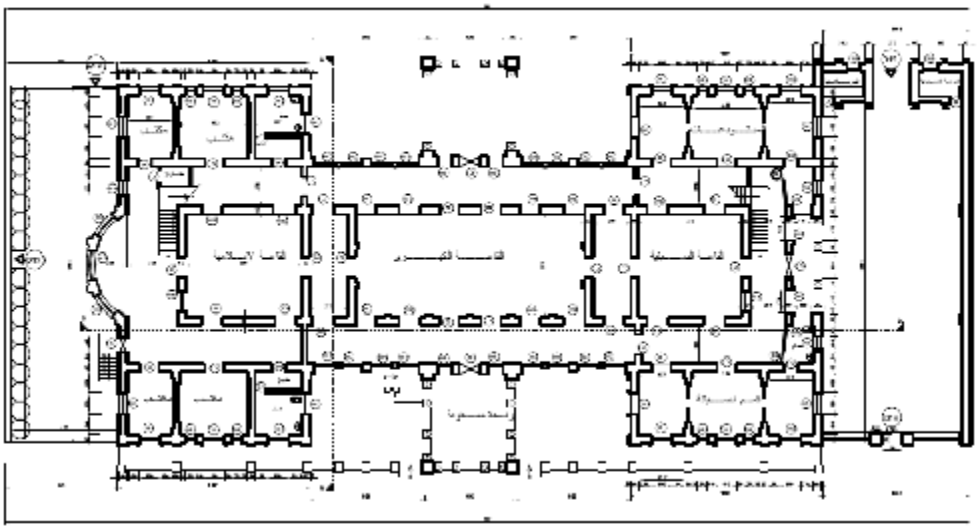

الشكل (16) يوضح مسقط الدور الأرضي للقصر[8]

1.4 متحف الموروث الشعبي:

أنشئ هذا المتحف لغرض عرض كامل لنشاطات حياة الإنسان اليمني من أعراسه وزيه والأدوات المستخدمة في الطعام وأدواته الموسيقية والأسلحة القديمة كالخناجر وأدوات التطبيب والزراعة. وتتوزع موجودات متحف الموروث الشعبي على ثلاث صالات في الدور الأول من القصر وهي كالآتي:

1.1.4 **الصالة الأولى:** ويعرض فيها ما يخص تقاليد الزواج ومراسيمه في عدن ومكونات بيت الزوجية وتجهيزاته وصندوق العرس وبعض الآلات الموسيقية والحلي ولوازم الولادة مثل سرير الطفل وتقاليد الولادة والختان(الشكل17).

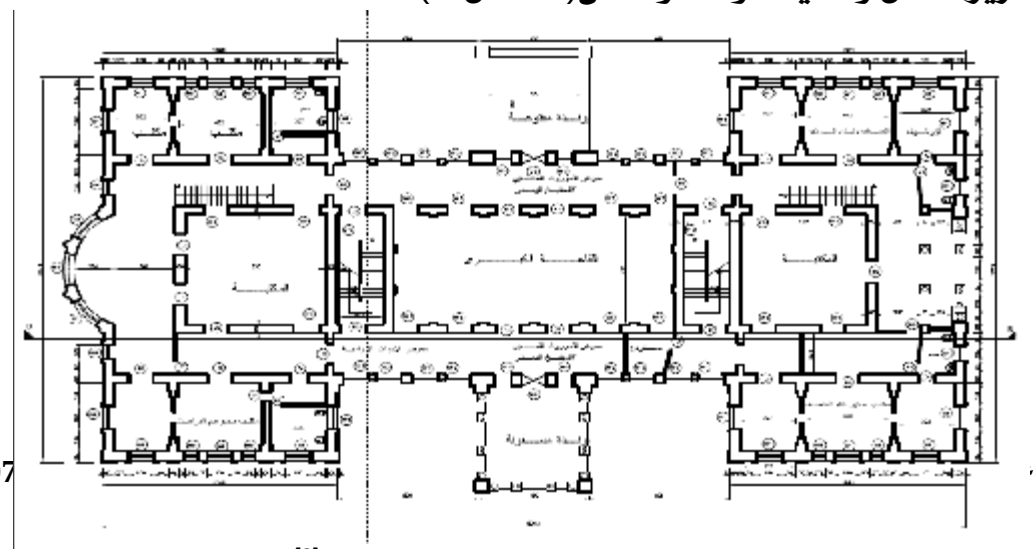

الشكل (17) يوضح مسقط الدور الأول للقصر[8]

2.1.4 **الصالة الثانية:** ويعرض فيها البيت العربي وما يحويه من نماذج للزخارف الخشبية أكثرها تزين مداخل الأبواب ثم مناظر لغرفة الجلوس(المقيل أو المبرز) ومحتوياتها، كما يوجد نماذج من الحلي الفضية التقليدية القديمة والأزياء الشعبية وطرق صباغة القماش وطبعه قديمًا وعملات قديمة، كما توجد أدوات المطبخ اليمني القديمة المصنوعة من الفخار والحديد والحجر والجلد والخشب إضافة إلى المباخر.

4.1.3 **الصالة الثالثة:** تضم غرفة الطعام ومحتوياتها إلى جانب الأواني المستخدمة لشرب الماء وحفظه، ونماذج لبعض الأسلحة القديمة كالسيوف والجنابي والخناجر والبنادق إضافة إلى أدوات الطب الشعبي ومعداته وأدوات الزراعة المستخدمة قديمًا.

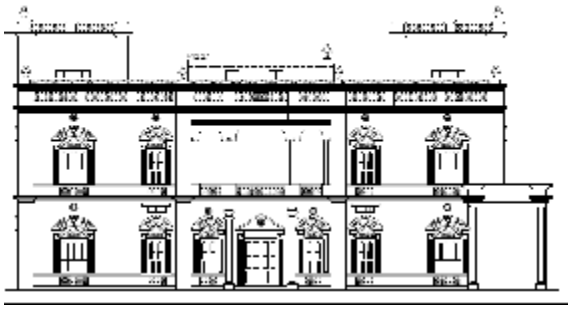

الشكل (18) يوضح الواجهة الغربية للقصر[8]

الشكل (19) يوضح منظراً للواجهة الشمالية للقصر[10]

الشكل (20) يوضح منظر جوي للقصر[10]

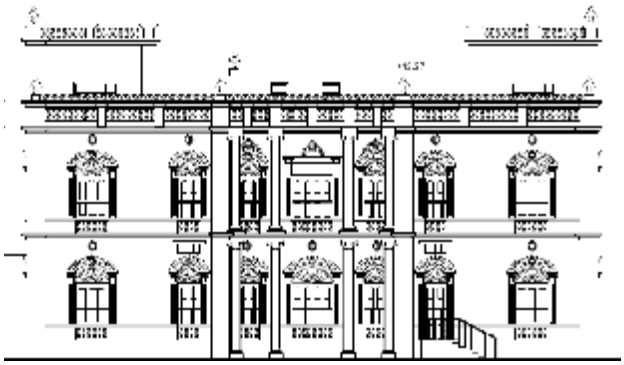

الشكل (21) يوضح الواجهة الشرقية للقصر[8]

الشكل (22) يوضح الواجهة الجنوبية للقصر[8]

5. مسجد العيدروس:

يعد مسجد العيدروس الذي يقع في حي العيدروس في منطقة كريتر من أشهر معالم مدينة عدن ويقصده كثير من السياح من زوار المدينة وقد بناه الشيخ العلامة أبوبكر بن عبدالله بن أبي بكر العيدروس الذي ولد في مدينة تريم حضرموت في (852هـ - 1488م) وحفظ القرآن صغيرًا وتعلم فيها على يد كوكبة من أكابر علماء المدينة وفقهائها في ذلك العصر حتى أصبح شيخًا ملمًا للعلوم والمعارف الدينية وله العديد من المؤلفات العلمية والدينية والمخطوطات وكان له دور اجتماعي بارز وكان جوادًا وكريم اليد وخصوصاً على الفقراء والمحتاجين، ويروى أنه توفي وعليه ديون من جراء سخائه وجوده قام بسدادها بعد وفاته أهل الخير من المحبين له، وقد عاش في مدينة عدن ما يقرب من 25 سنة، وأول من لقب بالعيدروس من أهله هو والده عبدالله، واللفظة تحريفًا وتصحيفًا لكلمة (عتروس) وهي اسم من أسماء الأسد. ثم بعد ذلك طاف بأجزاء من حضرموت ومنها الشحر ثم تجول زائرًا إلى زبيد وبيت الفقيه وحج بيت الله الحرام بمكة وعند عودته زار ميناء زيلع ثم رحل إلى الحديدة فتعز فلحج ودخل عدن بناءًا على طلب ورغبة من علمائها في مجيئه إليهم للاقتباس والنهل من علمه ومعارفه ولبى الدعوة فدخل عدن في (13 ربيع الثاني 889هـ - 1484م)، وباتت ذكرى دخوله عدن مودعاً لزيارته المشهورة والمقامة كل عام منذ ما يزيد عن 530 سنة وإلى يومنا هذا. [6](الشكل24).

الشكل (23) يوضح بيت الشيخ العيدروس

الشكل (24) يوضح موقع مسجد العيدروس[1]

قام الشيخ العيدروس الذي توفي في ليلة الثلاثاء (14 شوال 914هـ - 1508م) بتشييد مسجده في عام (890هـ - 1485م) وأصبح له الكثير من التلامذة والمريدين للعلم وذاع صيته في بقاع شتى من العالم الإسلامي.

وفي بداية الأمر كان المبنى عبارة عن مسجد صغير بني على الطراز المعماري الإسلامي القديم، ويوجد إلى الشمال من المسجد قبر وضريح الولي العيدروس. كان التجديد الأول للمسجد خلال عهد العثمانيين في (976هـ - 1568م) وكان ذلك بعد رحيل العيدروس بأكثر من ستين عامًا، أما البناء الحالي للمسجد والتجديد للقبة والمدخل الرئيسي الشرقي يعود تاريخه إلى (1274هـ - 1895م) وذلك وفقًا لما ورد في نص التأسيس على لوح خشبي موجود بالمدخل الرئيسي المؤدي للقبة والمسجد.[6]

تبلغ مساحة المسجد الإجمالية حوالي (2012م2) منها (305م2) للخدمات و(274م2) للملحقات (الشكل25).

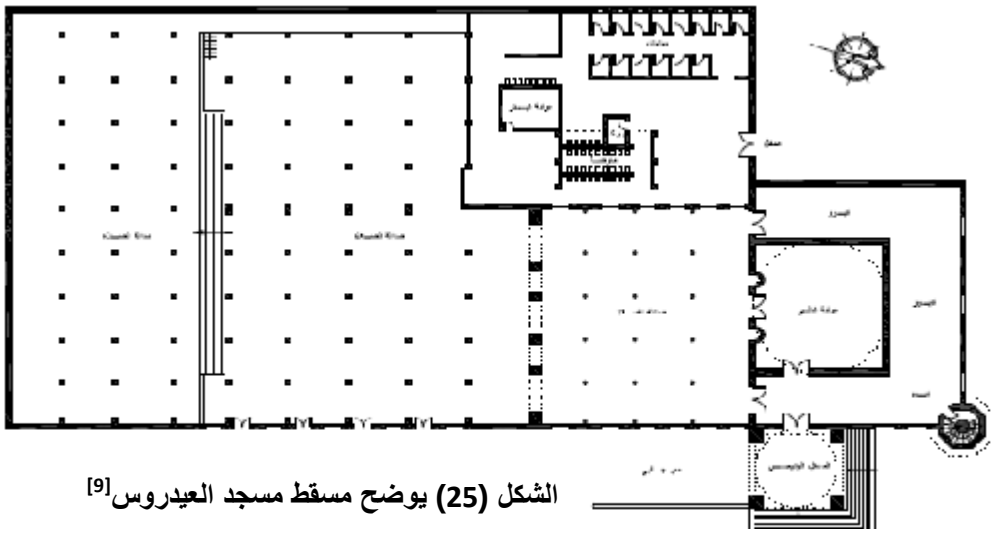

الشكل (25) يوضح مسقط مسجد العيدروس[9]

المدخل الرئيسي تغطيه قبة يصعد إليها عن طريق درجات سلم، ويزين القبة زخارف ومنمنمات نباتية وهندسية مرسومة باللون المائي على طبقة من الجص الجيري بطريقة الأفريسيك (Fresco) ويواجه المدخل عقد مفصص أخاذ يشبه تلك العقود المنتشرة في جوامع المغرب العربي (الشكل 26و27).

الشكل (26) يوضح قبة المدخل الرئيسي لمسجد العيدروس

الشكل (27) يوضح المدخل الرئيسي لمسجد العيدروس

توجد للمسجد منارة عالية باتت من معالم المدينة وهي ملاصقة للجدار الشمالي للقبة في الركن الشرقي ومبنية من حجر الحبش الأسود وتتكون من بدن مثمن الشكل والأضلاع به ثلاث دورات خشبية تنتهي في الأعلى بقبة صغير مضلعة، ولا توجد فتحات كثير في بدن المنارة، ويوجد في الطابق الثالث أربع مشربيات خشبية بارزة عن بدن

المنارة كانت تستخدم للأذان، ويلاحظ وجود تأثر بنمط العمارة الإسلامي في بناء المنارة بما هو مماثل في الهند وذلك بحكم التواصل الدائم مع تلك البلدان الإسلامية الذي فرضه الموقع الجغرافي لمدينة عدن، وقد بنيت في القرن التاسع عشر الميلادي (الشكل28).

الشكل (28) يوضح منارة مسجد العيدروس

نلاحظ تنوع الزخرفة والنقوش في المسجد من حيث تنوع التطبيقات والأساليب التي تم استخدامها في مراحل التجديدات المختلفة تبعًا لاختلاف المدارس المعمارية الإسلامية، كما يلاحظ أن الزخارف والمنمنمات والفسيفساء المستخدمة في الدهاليز قد تمت باستخدام أساليب الحفر والتخريم (الشكل 29و30).

الشكل (29) يوضح الزخارف في قبة مسجد العيدروس من

الشكل (30) يوضح الزخارف في المدخل الرئيسي لمسجد العيدروس

6- التوصيات:

وخلاصة لموضوع هذه الورقة البحثية توصلنا إلى عدة توصيات وهي:

أولاً: تزخر مدينة عدن بالكثير من المعالم المعمارية والتاريخية التي تؤكد مدى عراقة هذه المدينة وتراثها المعماري والثقافي وبالمقابل فإننا نؤكد ونوصي بالعمل الجاد على الحفاظ على هذا التراث المعماري والتاريخي من التلاشي والإهمال.

ثانياً: العمل على إيقاف العبث في المباني التاريخية وذلك من خلال عدم التصرف بهذه الصروح المعمارية وعدم إعطائها لمن لا يقدر قيمتها المعمارية والتاريخية.

ثالثاً: تشكيل فرق عمل متخصصة وذات كفاءات عالية من المهندسين والمتخصصين في صيانة المباني التاريخية والحفاظ عليها.

رابعاً: تشكيل هيئة عليا للحفاظ على المباني التاريخية في مدينة عدن تشرف بشكل مباشر على فرق العمل المتخصصة من المهندسين والمتخصصين لضمان التنفيذ السليم لعملية الصيانة لهذه المباني.

خامساً:قيام الهيئة العليا للحفاظ على المباني التاريخية في عدن بعملية حصر لجميع هذه المباني المعمارية والتاريخية وتوثيقها والعمل على جدولة صيانتها من خلال خطة عمل تشمل جميع هذه المباني التاريخية.

سادساً: على فرق العمل المتخصصة من المهندسين والمتخصصين في صيانة المباني التاريخية الأخذ بعين الاعتبار المعايير التخطيطية والتصميمية عند صيانة المباني التاريخية والعمل على إبراز هويتها المعمارية والتاريخية والثقافية.

سابعاً: اختيار مواد البناء المناسبة عند صيانة المباني التاريخية التي تتناسب مع طبيعة مواد البناء الأصلية وعدم تغيير تلك المواد، كما يجب الحفاظ على ألوانها وعدم تغييرها كما هو حاصل لبعض المباني التاريخية.

ثامناً: عدم تحويل المباني التاريخية لاستخدامات أخرى وخصوصًا مباني عامة كما حصل لقصر السلطان وإنما يجب الحفاظ عليها للغرض نفسه الذي أنشأت من اجله.

تاسعاً: العمل على خدمة قضايا الأمة الثقافية والقومية من خلال الحفاظ على التراث الثقافي والعمراني وهذا يساعد على دراسة الحضارة والفنون وتطورها وأيضًا يعد رافدًا هامًا للبحث العلمي وإنماء المعلومات التاريخية وتحسين الحياة الاقتصادية من خلال توفير مادة مهمة للصناعة السياحية.

عاشراً: حماية المواقع الأثرية والمعالم التاريخية والمعمارية من العوامل والمؤثرات الطبيعية كالأمطار الغزيرة أو الزيادة في الرطوبة النسبية أو الرياح التي تسبب أضرارًا كثيرة بالمعالم الأثرية وبالمخلفات التاريخية والفنية.

الحادي عشر: تشجيع الدراسات المتخصصة في مجال تأصيل القيم الحضارية والحفاظ على التراث العمراني لحمايته من خطر الضياع والاندثار والاغتراب.

الثاني عشر: تشجيع المواطنين وتوعيتهم وحثهم على المشاركة في عملية الحفاظ على الطابع المعماري والعناية بالمباني المعمارية والتاريخية.

7- المراجع والهوامش:

[1] شعت، شوقي، المعالم التاريخية في الوطن العربي ووسائل حمايتها وصيانتها وترميمها، المؤتمر الرابع عشر للآثار والتراث الحضاري العربي – الشارقة 1998 (ص3)

[2] سعيد، شايف عبده، تاريخ عدن – كريتر – عدن مارس 1997 (ص6، 8، 9، 80-84، 86)
[3] Bel, Jose Marie, ADEN Preface Theodore Monod port MYt hique au Yemen the Mythical Port of Yemen, Paris October 1998 (Page 18-20, 26-32, 82, 117)
[4] مجلة البناء السعودية السنة السادسة العدد 34 رجب / شعبان 1407هـ الموافق ابريل / مايو 1987م (ص 15-20)
[5] البهنسي، عفيف، ما بعد الحداثة والتراث في العمارة العربية الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مجلد 27، الكويت 1998م (110-117)
[6] مبارك، صالح محمد و حنشور، أحمد إبراهيم الأصالة والحداثة في عمارة مساجد عدن، الندوة العلمية الأولى 15-17 مايو 1999م، عدن – ثغر اليمن، الماضي – الحاضر – المستقبل، الجزء الأول، دار جامعة عدن للطباعة والنشر 1999م (175-176)
[7] قاسم، محسن عبده، شيء من ذاك الزمان-كتابات صحفية متنوعة – عدن 2009 (ص117، 120-121)
[8] الشكل (15-16-17-18-21-22) علي، غازي محمد والحاج، جمال- الصندوق الاجتماعي للتنمية – عدن 2010
[9] الشكل (25) خان، مارسيل محمود والجوباني، رامي عادل والقدسي، بسام محمد مسح ميدان 2004، رسم كمبيوتر سعيد، أماني حسن كلية-المجتمع عدن 2010
[10] الصور (2-4-8-10-11-12-18-19) شمسان، مرشد – مركز الدراسات والبحوث، يوليو 2010